محمد ﷺ يرى من وراء ظهره

* عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « هل ترون قبلتى هاهنا، فوالله ما يخفى علىّ خشوعكم ولا ركوعكم إنى لأراكم من وراء ظهرى» . [رواه البخارى، ومسلم ، والنسائى ، وأحمد، ومالك، والدارمى] .

١ - من المسلّم به أن الإنسان لايرى من الأشياء إلا ما يواجهه، وينتصب أمام ناظريه ، أما رسول الله ﷺ فقد تجاوز ذلك إلى رؤية ما يدور خلف ظهره، بدون أن يراه بعينيه . فكيف ذلك؟

إن الشيء تستقبله العين إذا كانت فى مواجهته ، ومِنْ ثَمَّ ترسله إلى مركز الإبصار فى الدماغ ، فالعين هى المنفذ الذى تصل من خلاله المُدرَكاتُ إلى مركز الإبصار فى الدماغ، ولايمكن للعين أن تحقق الرؤية إذا كان مركز الإبصار الدماغ غير موجود أو معطّل عن العمل .

٢ - وقد قال العلماء بأن الإنسان قد يرى بدون عينيه، ومن ذلك قصّة الفتاة الروسيَّة (روزا كوليشوفا) التى كانت ترى بأصابعها . فقالوا: تعليقاً على ذلك: إن العين هى أداة الرؤية ، وليست مصدرها، والمخ كذلك أداء التفكير، ولكنه ليس مصدره الأساسى .

٣ - وقال جل شأنه :

﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج :٤٦] .

أى أن العمى لا توصف به العينان، بل يُوصف به القلب، وإذا لم يكن القلب أعمى فإنّه لن يتأثر بالقوانين التى تحكم العين، والتى لاترى ما يواجهها، أمَّا القلب فإنّه سيرى فى جميع الجهات، بدون أن يكون مضطراً إلى الاستعانة بالعينين .

٤ - ومن ذلك قوله ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله عز وجل» [رواه البخارى والترمذى] .

ولا يكون نور الله تعالى وسيلة للرؤية إلا لعباد الله الأتقياء، بمعنى أنَّه لابدّ من توفرّ التقوى والإيمان للحصول على هذه الأداة الفعّالة، ومع ذلك فإن هذه النورانيّة، وهذه القدرة على الرؤية من الخلف لم تتوفرّ لأىّ من عباد الله إلا لمحمد ﷺ إشارة إلى أمرين:

١ - أنّ مقدار التقوى والإيمان لديه ﷺ يفوق كل أشكال التقوى المعهودة لدى بنى البشر، فكان عبداً تقياً نقياً، اصطفاه الله تعالى، وطهّره من كل الشوائب الماديّة؛ ليكون بحق أكرم رسله عنده، وأقربهم إليه.

٢ - تخصيصه ﷺ بهذه الآية رفعٌ لقدره، وإشارة إلى أنه ليس كغيره من البشر، بحكم ما يملكه من قدرات أجازتها كرامته على ربه.

ويجب أن لا نفهم من هذه الملاحظات أن الرؤية النورانية حِكْر عليه ﷺ؛ لأن رسول الله أشار إلى أنّ المؤمن قد يتّصف بها، وهو ما أقرّه فى حديث فراسة المؤمن.

فكما أن التقوى درجات، فكذلك الرؤية النورانية ، ومهما بلغت الرؤية النورانية لدى المؤمن علواً ، فإنها يستحيل أن تصل إلى درجة وصولها لدى محمدﷺ خاتم الأنبياء ، وصفوة الخلق أجمعين.